



القدس كمدينة مقسمة

مراد البسطامي

تناولت العديد من التقارير والأدبيات موضوع القدس، حيث تحدثت بشكل أو بآخر عن خمسة محاور رئيسية حسبها يورد وليد سالم⁽¹⁾: النوع الأول يعبر عن الجدل السياسي والأحقية في السيادة حول المدينة، والنوع الثاني من الأدبيات كان وصفيًا لسرد الإجراءات الإسرائيلية أو الفلسطينية في المدينة، أما النوع الثالث فتناول الجوانب القانونية، والنوع الرابع ذو منحى تاريخي، أما النوع الخامس فهو للحديث عن التخطيط العمراني والمشهد في المدينة. بينما ندرت الدراسات والأدبيات التي تتحدث عن القدس كمدينة مقسمة⁽²⁾ وما يعنيه ذلك من علاقات بين سكان المدينة الواحدة، وأنماط التقسيم الموجودة بالمدينة، والتأثيرات الاجتماعية والاقتصادية على السكان، كذلك كيف يتفاعل السكان مع وجود

(1) Salem, Walid. 2006. Internalization & Externalization: Palestinian Jerusalemites adaptations to Internal Occupation. Jerusalem.

(2) انظر أيضا إلى

Friedman Abraham, Nasrallah Rami. 2005. Divided cities in transition. IPCC. Jerusalem.

Calame, Jon and Others. 2012. Divided Cities: Belfast, Beirut, Jerusalem, Mostar, and Nicosia (The City in the Twenty - First Century). University of Pennsylvania Press.

وقائع كهذه؛ لعل السؤال الأبرز هو كيف سيكون مستقبل المدينة مع وجود تقسيمات كهذه. تحاول هذه المقالة أن تسلط الضوء على القدس كمدينة مقسمة، مع ربط هذه الفكرة، مع موضوعة حادثة البحر، مقابل حادثة الجبل التي تحدث عنها المؤرخ والسوسيولوجي سليم تماري. وهذه ليست حالة فريدة بعينها، فوجد عبر التاريخ العديد من النماذج للمدن المقسمة على سبيل المثال: بلفاست، نيقوسيا، موستار، برلين، بيروت. ومن الملاحظ أن معظم هذه المدن انقسمت بفعل الحروب ولعوامل سياسية. يمكن الادعاء أن لمدينة القدس ميزة خاصة دون المدن المقسمة الأخرى، فقد انقسمت المدينة في العام 1948 إلى قسمين، شرقي يتبع السلطة الأردنية، وغربي يتبع لإسرائيل، وفي العام 1967؛ وبسبب الحرب عادت المدينة لتتوحد مرة أخرى، ولكن هذه المرة تحت الحراب الإسرائيلية، مع ذلك بقيت المدينة مقسمة إلى اليوم من حيث التخطيط العمراني، والمخططات والخدمات، فالأحياء العربية منفصلة تقريباً عن الأحياء اليهودية، إما بفعل الجدران أو العوازل أو الشوارع، كذلك من حيث تركيبها السكانية والإثنية واللغوية والدينية. والانقسام الأخطر يتعلق بتأويل تاريخ المدينة والرواية التاريخية، حيث ينفي النموذج الاستعماري الصهيوني التاريخ الفلسطيني، وأي تاريخ قبل التاريخ الصهيوني، حيث أصبح الدارس لهذه المدينة، وكأنه يدرس تاريخين مختلفين لمكان واحد، أي رواية وتاريخ بدل رواية وتاريخ، وشعب بدل شعب، وثقافة بدل ثقافة. لم يقتصر الأمر على ذلك، بل تعداه ليتم تحويل الأرض إلى فضاء استعماري للرواية الصهيونية وتغيير للمعلم، ليس من حيث الكم الديمغرافي فحسب، بل تعدى الأمر وصولاً إلى تغيير أسماء الأماكن واستبدالها بأسماء توراتية وصهيونية⁽¹⁾.

في المقابل، لا بد من الالتفات إلى وجود مشكلة بحثية أساسية تطرح نفسها، تكمن في تعريف القدس كمدينة، فهل المقصود من القدس هو حدود الرابع من حزيران 1967، أم أن الحديث يشمل الأحياء العربية في القدس الغربية التي احتلت في العام 1948 كالتالبية والبقة والقطمون وغيرها. من هنا برزت مشكلة دراسية في وضع تعريف محدد لما تعنيه القدس، كذلك في وضع حدود جغرافية أو خارطة موحدة لها أو حتى تعريف قانوني للمدينة، يرافق ذلك ثنائية وازدواجية في الخطاب الفلسطيني حول القدس، خصوصاً بوجود قرار للتقسيم صادر عن الأمم المتحدة في العام 1947 والذي وضع المدينة تحت

(1) عبد الرحيم الشيخ، 2009. "تنقيب فلسطين، جينولوجيا سياسات التسمية الإسرائيلية للمشهد الفلسطيني". مؤتمر القدس تاريخ المستقبل. مؤسسة الدراسات الفلسطينية.



الوصاية الدولية، كذلك من خلال قرارات مجلس الأمن بما فيها القرار 242 و181، و338، فبعض الفلسطينيين يتحدث عن القدس كمدينة محتلة بشطريها الشرقي والغربي من خلال الحديث عن الأملاك العربية في القدس الغربية والحق الفلسطيني في استردادها أو العودة إليها، أو التعويض عنها. ووجهة نظر أخرى، أفرزتها أو سلو تتحدث فقط عن القدس الشرقية بحدود الرابع من حزيران 1967. ويقابل هذه الرواية، رواية إسرائيلية مضادة تتمثل برفض الحديث عن القدس الغربية كحق فلسطيني بما يتخلله من حديث عن حق العودة والأملاك العربية في الشطر الغربي، كذلك من خلال الحديث عن الوجه الأردني، واعتبار القدس أرضاً تم احتلالها من الأردن، يتم التفاوض عليها وليست أرضاً فلسطينية على الرغم من قرارات مجلس الأمن حول المدينة وقرار فك الارتباط الذي أعلنه المرحوم الملك حسين في العام 1988. من ناحية ثانية استغلال هذا الوضع القانوني للمدينة كثغرة قانونية في المفاوضات، وفي الوقت نفسه استخدام هذا التعريف في التعامل مع المقدسين كمقيمين دائمين. ويرافق هذا الخطاب الادعاء بالحق التاريخي اليهودي في القدس، واعتبار القدس مدينة يهودية مستردة، وبالتالي اعتبار احتلالها في العام 1967 بمثابة استعادة للحقوق اليهودية التاريخية في المدينة، لذا تشكل القدس حالة قانونية وسياسية معقدة⁽¹⁾، بالذات بعد نقل السفارة الأميركية إلى القدس والاعتراف فيها أميركياً بأنها العاصمة الأبدية والموحدة للشعب اليهودي.

بغض النظر عن التآويل المتعلقة بمدينة القدس؛ إلا أنه يمكننا اعتبار المدينة كمدينة مقسمة سكانياً وديمغرافياً ولغوياً وسياسياً، ويدعم هذا الادعاء الكثير من الشواهد، ولكن قبل الخوض في تحليل تشكل المدن المقسمة، لابد من إلقاء نظرة سريعة على مخططات بعض المدن الشرق أوسطية⁽²⁾. فعلى سبيل المثال، كانت تتألف المدينة الرومانية التقليدية، والقدس واحدة منها، من الجدران الخارجية، شارع الأعمدة "الكاردو" والسوق "الأغورة" وميدان السباق "الأكواسيوم" والمعابد والمسارح والأقواس الضخمة والساحات "الفورم" والتي شملت مباني عديدة، ومن بعدها المباني الرومانية التي استعملها السكان. بينما ركزت المدينة الإسلامية على المساجد كوحدة مركزية، ومن ثم ألحقت فيها الأسواق والمباني السكنية

(1) انظر أيضاً إلى قرارات مجلس الأمن رقم 242، 338، 181، 252، 237، 298، 446، 452

(2) في العالم الجديد كانت الكنيسة هي الوحدة المركزية، ومن ثم معسكرات الجيش والمستوطنات التي تحميها الأسوار.

والمدارس والزوايا ودور الأيتام والخانات. في السياق نفسه، كانت المدينة العربية الواحدة مقسمة داخل الأسوار حسب الطوائف الدينية: مثل حارة اليهود، حارة الأرمن، حارة النصرى، أو نسبة إلى المهن والحرفيين فيها مثل: حارة القزازين، سوق الحدادين، سوق القطانين، سوق اللحامين، أو نسبة إلى العائلات أو أسماء بعض الحكام أو الشخصيات العامة مثل سوق الحميدية، الغوروية، العباسية في مصر، الأشرفية، الطالبية، المعظمية... الخ. وكانت هناك وحدات أصغر للتقسيم ضمن نفس المنطقة مثل الحوش أو العقبة، كذلك أسماء الأحياء والمدارس والتكايا والزوايا الصوفية فيها. هذا بالطبع يدفعنا إلى بحث آخر، وهو تأويل الأسماء الموجودة في المدن والأحياء العربية، ودلالات هذه الأسماء التي يعود معظمها إلى اللغة الآرامية والسريانية⁽¹⁾. حيث اندمجت هذه الطوائف حينها في بحر المدينة الواحدة تحت بوتقة الهوية العثمانية التي شملت اليهود والمسلمين والمسيحيين والجوالي التي سكنت القدس، فالتجزئة التي فعلها الاستعمار أصبحت تعني نمو هوية محلية مناطقية، على حساب الهوية الجامعة التي صهرت جميع الطوائف والأقاليم في البوتقة العثمانية آنذاك. وهنا يمكن الحديث عن بروز الهوية الكولونيالية التي تعني الهوية المناطقية التي صنعها الاستعمار، والوعي الذي قام حولها من حيث تفتيت للهوية الجامعة.

على صعيد آخر، يميز يانسن هانسن بين المدن، فيتحدث عن نموذج المدينة الإسلامية أو الشرقية وعن نموذج المدينة المستعمرة وعن نموذج مدينة البحر المتوسط، كفضاءات متباينة، فبالنسبة للمدينة الإسلامية يقول "منذ دراسة ماكس فيبر اعتبرت المدينة في الشرق الأقصى كميدان للسلطة غير الشرعية بالمقارنة مع النموذج المثالي في المدن الأوروبية خلال القرون الوسطى أو بالمقارنة مع مدن الإغريق، وهذا يعود فيما قيل إلى عدم وجود حقوق للمواطنين وعدم وجود مؤسسات تغذي الهوية المدنية... أما بالنسبة للمدينة المستعمرة فيقول، طبقاً لميتشيل، فإن هوية المدينة الحديثة أنها تبنى على ما بقي من خارجها وإن حدثتها تعتمد على ما استثنى من نقيضها لكي يرهن على أنها مكان للنظام والمنطق والنظافة والحضارة، يجب على السلطة المستعمرة أن تبقى خارجاً كل ما هو غير منطقي ومخل بالنظام وملوث وبربري ومزدحم... أما بالنسبة للمدينة الشرق أوسطية فيقول لقد دخل نموذج مدني حديث على النقاش في المدة الأخيرة حول المدن في الشرق الأوسط وهو

(1) انظر إلى أبو خضير، ناصر الدين. 2016. أسماء قرى القدس: دراسة لغوية دلالية. مجلة اتحاد الجامعات العربية. مج 13، ع 2.



نموذج مدينة المتوسط، فكما نموذج المدينة المستعمرة كذلك نموذج مدينة المتوسط، فإن الرأسمالية العالمية تفضل الدور التجاري للمدن التي تتمتع بمرفأى على المدن الداخلية⁽¹⁾.

هناك عوامل عديدة لتأويل ظاهرة المدن المقسمة، لعل من أهمها العوامل السياسية كما جرى الحال في برلين، ومع مدينة رفح، حيث قسمت الحدود مدينة رفح إلى مصرية ورفح فلسطينية، كذلك الحال مع مدينة نيقوسيا في قبرص المقسمة بين القبارصة اليونان والأترك. ولكن أكثر الشواهد التاريخية لانقسام المدن كانت الحروب التي تعتبر الرافعة الأساسية في تشكل المدن المقسمة؛ حيث يتم الفصل بين سكان المدينة الواحدة بسبب التناقضات الاجتماعية والفلتان الأمني عبر وخلال الحواجز والمتاريس ونقاط التفتيش. ويحاول كل طرف توسيع حدوده أو الاستيلاء على المرافق المهمة كالبنوك والموانئ والمرافق الحيوية، حين توضح خطوط التماس، كما جرى في العاصمة اللبنانية بيروت إبان الحرب الأهلية، حيث تركز الخط الأخضر بين ما عرف حينها ببيروت الشرقية التي شكلت المواردنة أغلبية سكانها، وبيروت الغربية التي حوت طوائف وأحزاباً مختلطة. وقد جرت الكثير من المعارك والمناوشات لتحديد هذا الخط بالذات معارك الأسواق والفنادق فيما عرف حينها "بحرب الستين". أما في القدس إبان حرب 1948، فلم تكن خطوط التماس واضحة في فترة الهدنة الأولى، نظرًا لتداخل الأحياء العربية والأحياء اليهودية بالذات فيما يعرف في القدس الغربية، وأثناء حرب عام 1948 نشبت معارك كثيرة بين مد وجزر للسيطرة على أحياء القدس الغربية والشرقية، منها بالذات معارك النوتردام، الحي اليهودي، الشيخ جراح، القطمون، باب الواد. وتشكلت الخطوط الفاصلة بين القدس الشرقية والغربية؛ بفعل الهدنة التي وقعها كل من موشيه ديان والقائد عبد الله التل. وفي حرب عام 1967 احتلت إسرائيل القسم الشرقي لتتوحد المدينة عملياً تحت الحكم الإسرائيلي.

تتوحد المدن من جديد ضمن دورة حياتها في حالة الاتفاق السياسي أو المصالحة أو بعيد انتهاء الأعمال العسكرية، كما جرى الحال في بيروت بعيد اتفاق الطائف وبرلين بعد سقوط الجدار، حيث تزال الحواجز والمتاريس، وقد تستمر الحواجز لأسباب أمنية وسياسية كما جرى الحال في بلفاست وموستار ونيقوسيا.

ومن العوامل المساعدة لوجود ظاهرة المدن المقسمة، التناقضات الطبقية والخلل في توزيع

(1) يانسن، هانسن وآخرون. 2000. عصر النهضة مقدمات ليبرالية للحدثة. "محرر". ط1. بيروت. مؤسسة رينيه معوض والمركز الثقافي العربي ومؤسسة فريدريش ناومان. ص 101

الثروات، واحتكارها ضمن فئة عرقية أو دينية ما، حيث تؤدي هذه التوترات إلى حالة من الانفجار الذي يكون على شكل حرب أهلية أو حرب بين الفقراء والأغنياء، وربما تكون العوامل الطائفية، الشكل لهذا الصراع، إلا أن معظم الصراعات الطائفية طالما اختزلت تناقضات اجتماعية داخل المدينة الواحدة عبّر عنها بالشكل الطائفي نظرًا لتركز رأس المال ضمن فئة ما، كذلك التنوع العرقي والإثني في البلاد، حيث تنمو العصبية أو القوميات التي تطالب بعد فترة بالانفصال كما حدث في يوغسلافيا السابقة، والهجرة الداخلية إلى المركز كحال مدينة سراييفو، حيث تتمركز كل فئة في مناطق معينة، بحثًا عن الأمن والحماية وكنوع من التضامن العضوي والآلي الذي تحدث عنه دوركهيم. فحسب دوركهيم فإن المجتمعات التي يكون فيها تضامن آلي يكون تماسكها واندماجها من تجانس الأفراد عن طريق العمل المتماثل والتعليم والديانة وأسلوب الحياة. بينما علل ابن خلدون ذلك من خلال الحديث عن العصبية "وإذ بعد النسب بعض الشيء فربما يُنسى بعضها، وتبقى منها الشهرة فتحمل على النصر لذوي نسبة الأمر المشهور منه فرارًا من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه. ومن هذا الباب الولاء والخلف، إذ نكرة كل أحد على أهل ولائه وحلفه للأئمة التي تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب، وذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريبًا منها... إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له، ونفعه إنما هو في هذه الوصلة والالتحام. فإذا كان ظاهرًا واضحًا حمل النفوس على طبيعتها من النكرة كما قلناه، وإذا كان يُستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم، وذهبت فائدته"⁽¹⁾.

حيث يؤدي توافد الجوالي واللاجئين إلى تشكيل كيانات مصغرة داخل المدينة الواحدة، سرعان ما تتطور هذه الكيانات لتشكّل محلية بذاتها كحال مدينة بيروت، فعلى سبيل المثال توسعت منطقة برج حمود أضعافًا بعد تركز الكثير من اللاجئين الأرمن بعد مجازر العام 1915. بينما ازدهرت الأحياء الجنوبية أو ما تعرف اليوم "الضاحية الجنوبية" بعد الهجرة الاقتصادية من الجنوب بعيد الاستقلال؛ بينما شهد الجبل والأحياء الشرقية بالذات من العاصمة بيروت موجات نزوح جماعية بفعل الحرب الأهلية في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي⁽²⁾، مع ضرورة التمييز بين الهجرة الاقتصادية والقسرية والتي ترافق معظم الحروب.

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن. 2004. المقدمة. تحقيق حامد أحمد الطاهر. ط1 القاهرة: دار الفجر للتراث. ص171

(2) طرابلسي، فواز. 2008. تاريخ لبنان الحديث. رياض الريس للكتب والنشر. ط1. بيروت.



فالهجرة أو توافد الجماعات الوظيفية من الأرياف والمحيط، ونمو الأحياء وأحزمة الفقر من دلالات حدائة ونمو أو انكماش أي مدينة، حيث تنمو الجوالي والجماعات المهاجرة أو تندثر اعتماداً على العامل الاقتصادي أو بفعل الحروب، فيروت أصبحت العاصمة السياسية والاقتصادية للبنان، مع العلم أن الشوف وبيت الدين هي مقر الزعامة التقليدي، كذلك الحال بالنسبة لمدينة حيفا، فلطالما ذكرت الكتب والمصادر التاريخية مدينة عكا كمركز أساسي ولم تذكر حيفا بنفس الأهمية التي ازدادت أهميتها بعد حملة إبراهيم باشا وتوسيع الميناء حينها. في المقابل تعاني بعض المدن من ظاهرة الانكماش كحال مدينة برلين بعيد الحرب العالمية الثانية، وكحال مدينة القدس بعيد النكبة.

تؤسس هذه الجماعات، مجتمعات خاصة بها داخل الحواضر، مثلما فعل اليهود والإيطاليين والإيرلنديين والهولنديين في نيويورك. وهذه سمة الجماعات الوظيفية. حيث تعاني الجماعات الوظيفية والمهاجرة من حالات تمييز، وبطش في بعض الأحيان، من قبل الجماعات التي تعتبر نفسها أصلية، يعبر عنه في النكات والأمثال والشتائم، وقد تصل إلى حد التطهير العرقي، حيث ترفض هذه الجماعات مزاحمة الغرباء والاندماج بهم إلا في حالة الحراك الطبقي والاجتماعي، فيشكلون حواضر أو مدن صفيح أو أحزمة فقر حول المدن تعاني الهامشية والفقر. كذلك تتعرض هذه الجماعات لحالات تمييز وتأطير بسبب الدين والإثنية ومكان السكن، ونوع العمل، واحتقار للعمل اليدوي الذي يمارسونه. في السياق الاستعماري يكون الفصل بين المستوطنين وبين السكان المحليين. "تماماً مثلما قام اليونانيون والإيطاليون بدور الجماعة الوظيفية في مصر، ووقعوا ضحية للتطور التاريخي الذي طرأ على مجتمعاتهم وأصبحوا جماعات وظيفية بلا وظيفة، وقد حلت المسألة اليونانية في مصر على سبيل المثال برحيل كثير من اليونانيين إلى اليونان، وتبقى من تبقى منهم بعد اندماجهم في المجتمع المصري وتقبل وضعهم دون تمييز حضاري أو مهني، وقد تم الشيء نفسه بالنسبة للجماعات اليهودية في إنكلترا وفرنسا، إذ طردت الغالبية العظمى منهم، وبقي عدد قليل اندمج مع السكان"⁽¹⁾.

بالنسبة لمدينة القدس فمنذ عام 1948 ولغاية حزيران 1967 كانت مدينة القدس مقسمة إلى قسمين: المدينة الغربية التي غطت مساحة قرابة الـ38,000 دونم تحت السيطرة الإسرائيلية، والمدينة الشرقية التي غطت مساحة الـ6,000 دونم تحت السيطرة الأردنية.

(1) المسيري، عبد الوهاب. 1998. الأصول الغربية للرؤية الصهيونية". مجلة شؤون عربية. ع166: 115 - 190.

في شهر حزيران 1967، بعد حرب الأيام الستة، استولت إسرائيل على قرابة الـ70,000 دونم وضمتها لحدود بلدية القدس الغربية وفرضت القانون الإسرائيلي عليها. الأراضي التي ضمت لم تشمل فقط المدينة الشرقية بحدودها التي كانت تحت السيطرة الأردنية، بل شملت أيضاً قرابة الـ64000 دونم إضافي، وغالبية هذه الأراضي كانت تابعة لـ28 قرية في الضفة الغربية، وبعضها تابع لبلديتي بيت لحم وبيت جالا. جراء هذا الضم كبرت مساحة مدينة القدس ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قبل الاحتلال وأصبحت القدس أكبر مدينة في إسرائيل. والواقع أنه لغاية عام 1967، معظم المساحة البلدية للقدس بحدودها الحالية لم تكن جزءاً من المدينة (الشرقية أو الغربية)، وإنما جزء من الضفة الغربية التي احتلت في الحرب⁽¹⁾.

مارست إسرائيل منذ العام 1967 سياسة خاصة تتعلق بالقدس، يمكن وصفها بالأحادية الإسرائيلية تجاه القدس والمقدسين، ولهذه السياسة بعدان، الأول تجاه المقدسين كسكان، والآخر تجاه المدينة كفضاء كولونيالي، يتمثل الشق الأول بالأسرلة⁽²⁾ والتهويد والتهجير والعزل⁽³⁾ والضم ومصادرة إرث المدينة الحضاري، الذي يعني سبي وطمس الوجه العربي الإسلامي والمسيحي للمدينة، واستبداله بنموذج مختلق يعبر عن فانتازيا توراتية فوق الأرض وتحت الأرض، لا تعبر بالضرورة عن حداثة المدينة ولا عن تاريخها، لدرجة أن المدينة أصبحت رهينة بيد مجموعة من المقاتلين والجمعيات الاستيطانية كعطيرت كوهانيم، والعاد، وأمناء جبل الهيكل. تهدف هذه الجمعيات والسياسة بشكل عام إلى تحويل المدينة إلى منتجعات وحدائق استشرافية تعبر عن احتكار حقبة معينة من تاريخ المدينة الطويل، واختلاق فانتازيا توراتية حول المكان. هذه السياسة لها مبرراتها الفكرية فمنذ نشوء

(1) مركز المعلومات الإسرائيلي لحقوق الإنسان يتسيلم. 2009. الوضع القانوني للقدس الشرقية وسكانها. القدس. نسخة الكترونية استعيدت بتاريخ 15/10/2009.

(2) انظر أيضاً إلى

Hodgkins, Allison. 1996. The Judaization of Jerusalem - Israeli Policies Since 1967. Passia. Jerusalem

(3) سالم، وليد. 1996. القدس في عهد حكومة الليكود معطيات عن عمليات التهويد والتهجير والعزل. صحيفة الأيام. 25 تشرين أول. ص 15.

انظر أيضاً عودة، يعقوب. 2008. التهجير القسري للبدو في القدس. جمعية الدراسات العربية والاتلاف الأهلي للدفاع عن حقوق الفلسطينيين في القدس. القدس مصالحة، نور الدين. 2003. إسرائيل وسياسة النفي: الصهيونية واللاجئون الفلسطينيون. رام الله: مدار.



المشروع الصهيوني ونداءات هرتسل الأولى بأن لا مكان لغير اليهود في دولة اليهود؛ حتى يستطيع اليهود أن يقيموا دولة قومية تتميز بالتناغم الإثني على غرار الدولة القومية في أوروبا. "ارتكز الفكر الصهيوني بمجمله إلى فكرتين أساسيتين: الأولى أن الروابط التي تربط اليهود وتجعل منهم يهودًا أو شعبًا يهوديًا هي بالأساس مستمدة من اليهودية، والتي تشكل بدورها نظامًا معرفيًا وسلوكيًا شاملاً يميز اليهود عن غيرهم من البشر. يضاف إلى ذلك نشوء وتكوين ثقافة اجتماعية وأدبية تنطلق في أساسها من النظام الديني اليهودي... إلا أن مفكري ورواد الحركة الصهيونية أكدوا أن اليهود يشكلون وحدة بشرية، أمة واحدة أو شعب واحد، بالرغم من تعدد أوطانهم ولغاتهم"⁽¹⁾.

يضاف إلى ذلك فرض اللغة العبرية كلغة رسمية في التعاملات اليومية، وفي التخاطب مع المواطنين، وفي تسمية المستوطنات والمناطق، ثم تم عزل المدينة عن عمقها الريفي⁽²⁾ وامتدادها السكاني العربي كما سبق من خلال الحواجز والحدود والمستوطنات؛ وذلك لأجل خلق أغلبية يهودية في المدينة، يقابلها توسع سكاني وضم لمستوطنات ضمن مشروع القدس الكبرى⁽³⁾. هذه الإجراءات تمثل انتهاكًا فاضحًا لكل القرارات والقوانين الدولية، ولعل أبرزها قرار الضم في العام⁽⁴⁾ 1980، بالتالي اعتبار مدينة القدس عاصمة لدولة إسرائيل.

توجد جوانب عدة لدخول اللغة العبرية أو بعض مصطلحاتها في قائمة المفردات الفلسطينية، ليس كلغة كولونيالية فقط، بل كنوع من التأثير المتبادل، الأول يعبر عن مرحلة عاشها المجتمع الفلسطيني في الداخل وال الضفة وغزة، تمثلت بالاحتكاك اليومي مع الإسرائيليين، من خلال التجارة والتعليم وسوق العمل، أو حتى في حالة السجن أو الحجز، هذا النوع من التفاعل، تطلب من هؤلاء أن يتعلموا اللغة كمفتاح أساسي، وكقناة مشتركة في تيسير المعاملات اليومية. هذه المعرفة (الإرادية) سمحت ببناء معرفة جيدة عن

(1) أبو لغد، إبراهيم. 1999. "أسطورة إسرائيل الثامنة". مجلة آفاق. ع4: 156 - 157.

(2) انظر إلى تماري، سليم وآخرون. 2003. القدس 1948 الأحياء العربية ومصيرها في حرب 1948. ط2. بيروت. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ص89.

(3) تقرير "القدس النشاط الاستعماري والسياسات والممارسات الإسرائيلية. حزيران. 2009. الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية. ص16.

(4) انظر إلى حليبي، أسامة. 1994. القدس آثار ضم القدس إلى إسرائيل على حقوق ووضع المواطنين العرب. ط2. الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية - باسبا. القدس.

المجتمع الإسرائيلي وطريقة حياته، بالتالي التغلغل أكثر وأكثر في الثقافة العبرية، كذلك من خلال حركة ترجمة نشطة للأدبيات والتحليلات والصحافة العبرية. أما الجانب الثاني في دخول العبرية، فهو الجانب القهري والذي تطلب من الفلسطينيين أن يتعلموا العبرية كنوع من المفردات القهرية، وهذه ارتبطت من العلاقة المباشرة مع الاحتلال، والمتمثلة في حالة السجن والعبور اليومي على الحواجز. أما الجانب الثالث فهو تبني الفلسطينيين لكثير من المفردات الصهيونية مثل مصطلح (المحرقة) و(الغيتو) و(الدياسبورا) في قائمة المفردات الفلسطينية وفي الخطاب السياسي المعاصر. "فإنّ التحوّل الذي أحدثته أو سلو لم يقتصر على اللغة ذاتها فحسب، بل أيضاً على تحويل اللغة والمنظور الفلسطينيّ اللذين نظرت القيادة الفلسطينية من خلالها إلى طبيعة العلاقات الفلسطينية - الإسرائيلية، حيث أسست عوضاً عنهما المنظورَ والمفرداتِ الإسرائيليّة بوصفها محايدة وموضوعية. إنّ ما سعت إليه عملية أو سلو، إذًا، كان قلبَ هدفِ السياسة الفلسطينية ذاتها، من هدف الاستقلال الوطني عن الاستعمار والاحتلال الإسرائيلي، إلى هدفٍ يصبح الفلسطينيون بموجبه عاليةً في بقائهم السياسيّ والوطنيّ على إسرائيل وراعيها الأميركيّ، وذلك لفائدة سلام محتلبهم وأنهم"⁽¹⁾.

في المحصلة، يمكن الحديث عن القدس كمدينة مقسمة، لا من حيث السكان واللغة والأديان فحسب، بل من ناحية المخططات ومساحة العيش المخصصة لكل جانب، ويمكن تبرير هذا الادعاء من خلال الحديث عن المشهد الهندسي، والمعماري، في مدينة القدس، حيث يتم توصيفه على أنه نمط هندي، في إعادة تفكيك وبناء الحيز العام لدى الفلسطينيين، والذي يستند في مجمله إلى المدرسة المابعد بنوية، وإعادة إنتاجه صهيونيًا، حيث يُعاد رسم الخرائط، وتعاد هندسة الأحياء، والأماكن والتسميات، والبوابات والطرق، بطريقة تتوافق والرؤى التوراتية، والأمنية الإسرائيلية، حيث توجد جوانب عدة للمشهد، الأول يكمن في البنية الأمنية التي أصبح عليها المكان من خلال الفصل بين السكان العرب واليهود في المدينة من خلال بناء مستعمرات، وجدران، وأبراج، وحواجز، وقوات أمنية متأهبة طوال الوقت، وكاميرات مراقبة تعمل على مدار الساعة فوق الأرض وأنفاق تحت الأرض، هذه المنظومة البنائية ذات بعد استراتيجي، وأيديولوجي، حيث تشبه هذه المنظومة الأمنية في بنيتها القلاع أو السجون الكبيرة، المحمية من الخارج من

(1) Joseph Massad, The persistence of the Palestinian Question. (Routledge, New York, 2007).



خلال الجدران والأبراج والحواجز، والمؤمنة من الداخل من خلال المعازل والكاميرات والقوى الأمنية، ومن ثم تغليف هذه المنظومة بطابع سياحي ترفيهي متمدن "لا يمكن اليوم الدخول أو الخروج من وإلى الفضاءات الاجتماعية الإسرائيلية بغير المرور ببوابة وبحارس وبفحص أمني، هم المدخل الوحيد للقفص الذي يوضع على كل فضاء عام ممكن، لغاية الآن لا يوجد سياج وبوابة ثابتان بمدخل الأحياء المختلفة بأسلوب الجماعات المسيحية Gated Communities الأميركية،... فإن ما يحدث الآن هو عبارة عن قفص متنقل، تملك الدولة وأجهزتها الشرعية الوحيدة لوضعه وتشغيله في كل لحظة معطاة حسب تقديراتها⁽¹⁾.

الجانب الثاني، يكمن في عزل الأحياء والمناطق العربية عن بعضها بعضاً، على شكل كانتونات وجعلها تعيش كجماعات فولكلورية مسيحية، تعاني الفاقة والهامشية الاقتصادية، وتعاني البطالة والازدحام والعشوائيات لتشكل ما يشبه مدن الصفيح على أطراف المدن، بعد أن تم عزلها عن المركز، بالتالي تجفيف بنيتها الاقتصادية وفسخها عن عمقها الديمغرافي والاقتصادي، بينما يغلب طابع الفوضى والفلتان الأمني والإهمال على شكل البنية التحتية، من شوارع إلى مياه الصرف الصحي وغيرها.

والجانب الثالث وهو ما تحدث عنه د. إسماعيل الناشف من خلال الفندقية والتصفيح والتقيص التي تميز تفاعلات الفضاء الاجتماعي للحجى بصورته التي سادت لمدة أربعة عقود مع التحولات الاجتماعية الاقتصادية "إن إرث المستعمرات الحدودية يميز أغلب المشاريع الاستعمارية الاستيطانية، وبهذا فإن المشروع الصهيوني لا يختلف عن منابته الأوروبية ومن ثم الأميركية، فالحجى الحدودي هو عبارة عن تحويل محدد لمستعمرة الحدود، سبقتة نماذج متعددة في تاريخ الصهيونية مثل الجدار والبرج "حوماه وميجدال" والمستعمرات الحدودية التي يبنها ويستوطنها أفراد نفس الوحدة العسكرية بعد أو خلال خدمتهم العسكرية، إن عملية التقيص تحوّل مفهوم المستعمرة التقليدي إلى شكل أقرب إلى الحجى القفصي المغلق"⁽²⁾.

أما الجانب الرابع فهو، تحويل الأحياء والمخططات الهندسية التطويرية إلى فضاء استشرافي

(1) إسماعيل الناشف، 2005. فك الصهيونية: الفضاء والأيدولوجيا في المدينة الصهيونية. بيرزيت: معهد أبو لغد للدراسات الدولية جامعة بيرزيت، ص 32.

(2) نفس المصدر السابق، ص 33 - 34

يخدم الرواية الصهيونية، مثل تحويل بعض أحياء وأراضي القدس الشرقية، إلى حدائق توراتية، وإلى متاحف، كذلك محاولة نفي بعض الأماكن الأثرية العربية، وتحويلها إلى منتجعات وفنادق، كما حدث مع مقبرة مأمّن الله، ومبنى المجلس الإسلامي الأعلى في القدس الغربية. ورافق ذلك محاولة لتقليد الإرث المعماري والهندسي وبعض جماليات المشهد، وإعادة تدويرها وإنتاجها صهيونياً. مثل نظام القبة والأقواس والقناطر. "التعزيز سيطرتها الأمنية، وهيمنتها الحيزية على القدس داخل حدود الجدار، وخاصة البلدة القديمة ومحيطها المباشر أو ما يعرفه الإسرائيليون بالحوض المقدس، وهو مساحة 4 كيلو متر مربع بما فيها البلدة القديمة (التي تشكل مساحة أقل بقليل من 1 كيلو متر مربع وهي) منطقة تعرف كمركز التراث اليهودي، وتشمل مدينة داود في سلوان المقابر اليهودية على جبل الزيتون، جبل صهيون (حي الداودية حتى العام 1948) ومحيط أسوار البلدة القديمة... تم استبداله بواقع حيزي وسياسي وأمني يعزز من الوجود الإسرائيلي في البلدة القديمة، ومحيطها لتشكل قلب العاصمة اليهودية، ومركز الشعب اليهودي وفق الرؤية التخطيطية للخارطة الهيكلية 2000 للقدس"⁽¹⁾.

(1) نصر الله، رامي. 2009. القدس الواقع وانعكاساته الجيوسياسية والوظائفية: سيناريوهات مستقبلية، أعمال مؤتمر المستقبل لفلسطيني في ظل استمرار الاحتلال وتآكل إمكانية الدولة. القدس، مركز الديمقراطية وتنمية المجتمع وجامعة القدس.
انظر كذلك إلى حلبي، أسامة، 2009. القدس في القانون الإسرائيلي. مؤتمر القدس تاريخ المستقبل. مؤسسة الدراسات الفلسطينية.



قائمة المراجع المراجع العربية والمعرّبة

- ابن خلدون، عبد الرحمن. 2004. المقدمة. تحقيق حامد أحمد الطاهر. ط1 القاهرة: دار الفجر للتراث.
- أبو لغد، إبراهيم. 1999. "أسطورة إسرائيل الثامنة". مجلة آفاق. ع4.
- أبو خضير، ناصر الدين. 2016. أسماء قرى القدس: دراسة لغوية دلالية. مجلة اتحاد الجامعات العربية. مج 13، ع 2.
- حليبي، أسامة، 2009. القدس في القانون الإسرائيلي. مؤتمر القدس تاريخ المستقبل. مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- حوراني، فيصل. 2003. جذور الرفض الفلسطيني 1918 - 1948. ط1. رام الله: مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.
- تمّاري، سليم وآخرون. 2003. القدس 1948 الأحياء العربية ومصيرها في حرب 1948. ط2. بيروت. مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- سايبلا، برنارد. 2009. القدس نموذج المدينة المفتوحة وتفسير موقف منظمة التحرير الفلسطينية في المدينة. أعمال مؤتمر المستقبل الفلسطيني في ظل استمرار الاحتلال وتآكل إمكانية الدولة. مركز الديمقراطية وتنمية المجتمع وجامعة القدس. القدس.
- سالم، وليد. 1996. القدس في عهد حكومة الليكود معطيات عن عمليات التهويد والتهجير والعزل. صحيفة الأيام.
- الشيخ، عبد الرحيم. 2009. "تنقيب فلسطين، جينولوجيا سياسات التسمية الإسرائيلية للمشهد الفلسطيني". مؤتمر القدس تاريخ المستقبل. مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- مسعد، جوزيف. 2002. الدولة الثنائية القومية وإعادة توحيد الشعب الفلسطيني.. بيروت. دار الآداب نسخة إلكترونية.
- نصر الله، رامي. 2009. القدس الواقع وانعكاساته الجيو سياسية والوظائفية: سيناريوهات مستقبلية، أعمال مؤتمر المستقبل الفلسطيني في ظل استمرار الاحتلال وتآكل إمكانية الدولة. (القدس، مركز الديمقراطية وتنمية المجتمع وجامعة القدس.
- طرابلسي، فواز. 2008. تاريخ لبنان الحديث. رياض الريس للكتب والنشر. ط1. بيروت.
- عبد الرازق، عدنان. 2009. حق اللاجئ الفلسطينيين بالاستفادة من عائدات أملاكهم المحتجزة. أعمال

مؤتمر المستقبل الفلسطيني في ظل استمرار الاحتلال وتآكل إمكانية الدولة. مركز الديمقراطية وتنمية المجتمع وجامعة القدس. القدس.

- عورتاني، هشام. 2009. دعم اقتصاد الصمود: أولوية أساسية قبل وبعد إقامة الدولة. أعمال مؤتمر المستقبل الفلسطيني في ظل استمرار الاحتلال وتآكل إمكانية الدولة. مركز الديمقراطية وتنمية المجتمع وجامعة القدس. القدس.

- عودة، يعقوب. 2008. التهجير القسري للبدو في القدس. جمعية الدراسات العربية والائتلاف الأهلي للدفاع عن حقوق الفلسطينيين في القدس. القدس.

- مصالحة، نور الدين. 2003. إسرائيل وسياسة النفي: الصهيونية واللاجئون الفلسطينيون. رام الله: مدار.

- المسيري، عبد الوهاب. 1998. الأصول الغربية للرؤية الصهيونية". مجلة شؤون عربية. ع115: 166 - 190.

- يانسن، هانسن وآخرون. 2000. عصر النهضة مقدمات ليبرالية للحدثة. "محرر". ط1. بيروت. مؤسسة رينيه معوض والمركز الثقافي العربي ومؤسسة فريدريش ناومان. ص 101.

- فنكلشتاين، نورمان. 2002. كي لا يطرد الفلسطينيون من جديد. ترجمة سماح إدريس.. بيروت. دار الآداب نسخة إلكترونية.

- الناشف، اسماعيل. 2005. فك الصهيونية: الفضاء والأيدولوجيا في المدينة الصهيونية. بيرزيت: معهد أبو لغد للدراسات الدولية جامعة بيرزيت.

- تقرير "القدس النشاط الاستعماري والسياسات والممارسات الإسرائيلية. حزيران. 2009. الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية.

المراجع الإنكليزية

- Calame, Jon and Others. 2012. Divided Cities: Belfast, Beirut, Jerusalem, Mostar, and Nicotia (The City in the Twenty – First Century). University of Pennsylvania Press.

- Hodgkins, Allison. 1996. The Judaization of Jerusalem – Israeli Policies Since 1967. Pas-sia. Jerusalem

- Friedman Abraham, Nasrallah Rami. 2005. Divided cities in transition. IPCC. Jerusalem.

- Massad, Joseph, 2007. The Persistence of the Palestinian Question, New York, Routledge.

- Salem, Walid. 2006. Internalization & Externalization: Palestinian Jerusalemites adaptations to Internal Occupation. Jerusalem.